

مأثر الرحلة الطويلة



رحلتي ستستغرق وقتاً طويلاً..
والطريق الذي سأسلكه طويل وبعيد.
لقد أتيت ممتطياً إشعاعات الفجر الأولى
فانطلقت في حال سبيلي عبر العوالم الموحشة
مخلفاً أثاري على العديد من الكواكب والنجوم.
المسافر سيقرع كل باب غريب
حتى يصل أخيراً إلى بابه.
والمتملّس سيضطر للترحال والتجوال في العوالم الخارجية
إلى أن يبلغ أخيراً صميم ذاته ومقدّس روحه.
لقد شردت عيناى بعيدا قبل أن أطبقهما وأقول
"إنك حقاً هنا!"
آه.. كم من مرة تساءلتُ بحرقة "أين أنت؟"
لكن ذلك التساؤل ذاب في فيض الدموع المنهمرة
كالسواقي الغزيرة
وتحول إلى جواب يقيني أكيد.. "ها أنا ذا!"



الأغنية التي جنتُ لأنشدها ما زالت خرساء في قلبي حتى
هذه اللحظة.

لقد صرفتُ أيامي في شدِّ وإرخاء أوتار عودي.

فالوقت لم يكن ملائماً

والكلمات لم تكن لائقة

ولم يبق في قلبي سوى لهفة الأمل!

الوردة لم تتفتح..

ولا من صوت سوى تنهيدة الريح.

لم أرَ وجهه ولم أسمع صوته..

فقط سمعت وقع أقدامه خافتاً وآتياً

من الدرب المقابل لمنزلي.

مرَّ النهار بطوله وأنا منهمك في مد الفراش على الأرض

للترحيب به

فأغفلتُ إشعال المصباح

ولذلك لا يمكنني أن أدعوه لزيارة بيتي.

ومع ذلك أعيش على أمل لقائه..

لكن ذلك اللقاء لم يحن بعد!

(ومتى ما حان سأنشد بكل شوق ووجد:

قربك حبيبي مسك الختام)



يوماً بيوم تعدني وتؤهلني لاستحقاق الهبات

ال بسيطة والعظيمة

التي تجود بها عليّ دون أن أسألك.

فالسما والنعور والجسم والحياة والعقل..

كلها وهبتها لي

لكي تجنبي مخاطر الأهواء الكثيرة

التي لا تشيع ولا ترتوي.

أحياناً أتسكع على الدرب

وأحياناً أصحو من غفلتي

وأسارع في البحث عن غايتي

لكن يا حسرتي.. تحجب ذاتك عني..

ومع ذلك فإنك تلهمني وتساعدني لأفعل كل ما يؤهلني للقبول
لديك والمثول بين يديك..



إنني هنا لأصيح بأناشيدي لك.
ولي مكان متواضع في إحدى زوايا ردهتك الرحبة.
ما من عمل لي في عالمك سوى الإنشاد والتغني بكل ما
يخطر على بالي.
وعندما يحين موعد العبادة الصامتة
في هيكل منتصف الليل المظلم
اطلب مني يا سيدي كي أقف في حضرتك وأشدو ألحاني.
وعندما أدوزن قيثارتي الذهبية مع نسيمات الصباح المنعشة
أكرمني بدعوتك لي كي أنشد أمامك وأترنم بحضورك.



لقد دُعيت إلى مهرجان هذا العالم
فتباركت حياتي.
إذ قد أبصرت عيناي
وسمعت أدناي.
كان مقررًا لي أن أعزف على قيثارتي
في هذا المهرجان
فبذلت ما بوسعي وعزفت ألحاني.
والآن، هل آن الأوان كي أدنو منك
لأبصر وجهك

وأقدم لك

تحيتي الصامتة؟



السحاب يتراكم فوق بعضه أكادساً فتزداد الظلمة قتامة.
واحسرتاه! لماذا تركتني يا حبيبي أنتظر لوحدي خارجاً
عند الباب؟

في زحمة الظهيرة أجد نفسي بين الجموع
ولكن في هذا اليوم الموحش المرعب لا أتشوق لشيء سواك.
فإن لم تكشف لي عن وجهك..
وإن تركتني لوحدي خارجاً..
فلمست أدري كيف سأمضي هذه الساعات الطويلة الممطرة.
ومع ذلك لا أنفك محققاً في الأفق المعتم البعيد
بقلب ملهوف يتأوه وينن مع الريح الحائرة.



إن لم تخاطبني فسأملأ قلبي بصمتك.
سأبقى ساكناً ساكناً كالليل بنجومه الساهرة
وبرأسه المنحني بصبر وأناة.
لا بد من أن الفجر سيبزغ وستتلاشى العتمة
عندئذ سينسكب صوتك شأبيب ذهبية
عبر طيات السماء.
وستنهض كلماتك على أجنحة طيور ألعاني
وتنبثق أنغامك من ورود رياضي
ورياحين بساتيني.



في اليوم الذي أينعت فيه زهور اللوتس
للأسف كان فكري شاردًا دون أن أعرف ذلك.
فظلت سلتي فارغة من الزهور.
بين الحين والآخر غلفتني سحابة من الحزن
فنهضت من حلمي وشممت عبيراً غريباً
قادمًا مع ريح الجنوب.
ذلك الأريج العذب حرّك في قلبي لوعة الحنين
فشعرت أن ذلك كان نفس الربيع الهائم الولهان.
لم أعرف آنذاك أن ذلك الأريج كان لي
وكان قريباً كل القرب مني
وأن تلك العذوبة المتناهية قد تفتحت في أعماق قلبي.



يجب أن أبحر بقاربي.
فقد مرت الساعات
وأنا ما زلت على الشاطئ
فيا حسرتي!
لقد أزهق الربيع وأورق..
والآن ها أنا أنتظر بحزن
مع الزهور الداوية الذابلة.
لقد ازداد صخب الموج
وعلى الضفة
في الدرب الذي تظله الأشجار،
تتراقص الأوراق الصفراء وتتهاوى.
تُرى في أي فراغ تحلّق؟!
ألا تحس برعشة تسري في الهواء
على وقع أنغام الأغنية البعيدة
المناسبة من الشاطئ الآخر؟



في أعماق الظل حيث المطر المنهمر
تخطو خطواً غامضاً وصامتاً كالليل
فتعجز الأبصار عن معاينتك.
اليوم أغمض الصباح عينيه
متجاهلاً ضوضاء الريح الشرقية الصاخبة..
وانسدل حجاباً سميكاً على وجه السماء الزرقاء.
لقد هجعت أصوات الغابة
وأُغَلقت أبواب كل البيوت.
أنت العابر الوحيد في هذا الشارع المقفر.
فيا صديقي الأوحده.. ويا حبيبي الأقرب..
إن أبواب بيتي مشرّعة على مصراعيها
فلا تمر مرور الحلم (دون أن تجبر بخاطري)
(شرفني زيارة وغير العادة...
قلبي من جواً فاتح لك بابه!)

رابندرانات طاغور
الترجمة: محمود مسعود